أحلام الفارس القديم

للشاعر: صلاح عبد الصبور

(١٩٢٨ - ١٩٨١)

دراسة نقدية

دكتور

إسماعيل العبد المنشاوى

مدرس الأدب والنقد فى كلية

الدراسات الإسلامية والعربية للبنين

بدسوق - فرع جامعة الأزهر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أحلام الفارس القديم

للشاعر/ صلاح عبد الصبور

أحد الشعراء المصريين الذين أثروا الوحدة أو التوحد مع الآخر، وليس الآخر هنا إلاالشعر، يكتبه متوخياً التطهير، ومنبهاً الجماهير إلى خواء العالم وسخفه إن كان بلا معنى، وإلى قبحه إذا لم نتمكن من استشفاف الجمال في أغواره ومطاويه .

فى فترة تكوينه أحب جبران خليل جبران كثيراً، وشغف حباً بمحمود حسن إسماعيل (شاعر الكوخ والأماسى الصيفية الحالمة)، وأنعم النظر في إبداعات إيليا أبى ماضى (صاحب الطين والتينة الحمقاء)، وتَمّم وجه شطر ميخائيل نعيمة فقرأ فى (نسيجه وغرباله) بتقدير موفور، وأغراه الديوان الأول لنازك الملائكة (شاعر الكوليرا) بالمغامرة الشكلية للقصيدة العربية.

وأبدى إعجابه ببعض الشعراء المعاصرين من أمثال أحمد عبد المعطى حجازى الذى عده صوتاً فريداً، استطاع أن يمزج الجهارة بالفن، والغنائية بالتركيب الشعرى المكثف، والبلاغة القديمة بالمعاصرة .

ومن مثل أمل دنقل الذى رآه شاعر السنوات المقبلة، ولقد صدق حدسه حينما غدا هذا الجنوبى من أبرز الأصوات الشعرية وأكثرها أناقة وجاذبية .

أما السياب فقد أعد دواوينه الأخيرة قمة هام بها، وماذلك إلا حينما تمكن من مزج إحساساته الغائمة وعذاباته غير المحدودة بشعره .

كما انطلق يثنى على خليل حاوى الذى عده صوتاً نقياً عميقاً ومقتدراً.

وحينما عرض لأدونيس وشعره صرّح بأنه لايستطيع أن يمنحنا حكماً نهائياً، معللاً ذلك بعدم فهم شعره، اللهم إلا قصيدة أو قصيدتين جعلتاه يحسد من وعى شعر هذا الرجل .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويبدو أن الغموض الذى اكتنف شعر أدونيس، والسوريالية أو الهذيان المحموم والمشعوذ هما اللذان وقفا خلف هذا الحكم على أدونيس وشعره، ناهيك عن النقل الحرفى من المناخات العربية ومحاولة التنظير والتقنين لها- بل التطبيق كذلك تحت ستار مايسمى بالحداثة وخلق قارئ جديد لشكل جديد...- كل هذا كان دافعاً لصلاح عبد الصبور إلى التصريح بعدم فهم شعر أدونيس .

ويبدو أن تلاشى الإيقاع والتشكيلات النغمية، وامتلاء القصيدة المعاصرة بالألغاز والأحاجى والطلسمات وسائر الألعاب الصبيانية... إلخ يبدو أن كل هذا كان دافعاً لصلاح عبد الصبور إلي أن ينفر مما يسمى (قصيدة النثر) مؤثراً عليها مايسمى بـ(الشعر المنثور)، ومن هذا المنطلق راح يبدى افتتانه بما سطر جبران خليل جبران، ومحمد الماغوط، وحسين عفيف، منتهياً من ذلك إلى تقرير أن القصيدة فى رأيه ﴿لابد أن يكون لها نسق موسيقى﴾(١).

ذلكم هو صلاح عبد الصبور، الصوت المميز الذى دعم بشعره المواقف الإنسانية الرامية إلى الاحتفال بالمصائر والعذابات المختلفة، وهو أحد الكوكبة اللامعة من الشعراء المصريين الذين أثروا حياتنا الفكرية والفنية وناضلوا في سبيل خلق عالم شعرى جديد يتمرد على بلادة العادة وكسل الذاكرة واجترار المقولات المستهلكة التى باتت عبئاً ثقيلاً أرهق كاهل الشاعر المبدع، أقول: ناضلوا فى سبيل مناخ يعج بالحساسية الشعرية المغايرة لما كان سائداً أو حتى مجوجاً، عالم يرى فيه عبد الصبور ﴿الشعر وسيلة للتفاهم مع العالم، وفيما يصطرع فى أنحائه من أفكار وهموم مطامح.... ذلك لأن الشاعر يرى أبعد مما يرى الناس، فيتعذب بسببهم، ويفكر فيما يواجهون من صعاب وآلام، مطيلاً التفكير في ذواتهم وفى ذواته، محاولاً أن يجعل من الشعر - ذلك الشيئ

---

(١) قضايا الشعر الحديث - جهاد فاضل صـ٢٦٨ - الطبعة الأولى - دار الشروق - القاهرة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوحيد الذى سلم من سعيه الخاسر- أداة توصله مع الآخر»[١] وكأن صلاح يرى نفسه واحداً من هؤلاء الذين أصيبوا بشهوة إصلاح العالم كما يقول شلى.

أما عن سيرته الذاتية فنذكر أنه من مواليد القاهرة ١٩٢٨م، تخرج في كلية الآداب جامعة القاهرة ١٩٥١م، عمل فى تدريس اللغة العربية وآدابها، ومحرراً أدبياً في (روزاليوسف) فأتيح له بذلك نشر كثير من نتاجه الأدبى، وأفكاره الحديثة التي غالباً ماكانت تصطدم مع أفكار الكبار من كتاب عصره كالعقاد مثلاً .

عين مستشاراً إعلامياً بسفارة مصر في الهند أربع سنوات، ورئيساً لمجلس إدارة الهيئة المصرية العامة للكتاب، وحصل على جائزة الدولة التشجيعية فى الشعر .

يعد رائداً ومؤسساً لحركة الشعر الحديث في مصر، ولقد كون الجمعية الأدبية المصرية مع فاروق خورشيد، و د/ عز الدين إسماعيل، ود/ عبد الغفار مكاوى، و د/ أحمد كمال زكى، وعبد الرحمن فهمى، والتى اختير محمد فريد أبو حديد أول رئيس لها في نادى المعلمين .

فى بداية عام ١٩٨١م أصدر مجلة (فصول) عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، وهى مجلة تهتم بالأدب والنقد والنقاد .

كان قد تقرر تكريمه - لقاء ماتقدم من جهود فى خدمة الأدب العربى، ولنتاجه الشعرى الممنوع - بتنصيبه أميراً للشعراء بعد شوقى فى ١٩٨١/١٠/٢١م، أثناء الحفل الذى تقيمه جمعية خريجى الاقتصاد والعلوم السياسية بذكرى أحمد شوقى .

وافته المنية فى ١٩٨١/٨/١٤م إثر نوبة قلبية .

---

(١) الجحيم الأرضى - قراءة فى شعر صلاح عبد الصبور - محمد بدوى صـ٨ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م، وانظر: حياتى فى الشعر - صلاح عبد الصبور صـ١٠٣ دار (اقرأ) - بيروت ١٩٨١م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مؤلفاته وآثاره :

رحل عبد الصبور إلى العالم الآخر بعد أن خلف عدة آثار ومؤلفات تسمح بتصنيفه ضمن الخالدين من الشعراء المجدين الذين ذوبتهم شهوة الإصلاح بشتى مظاهره، هذه المؤلفات منها ماهو شعر، وماهو نقد، أو مسرح، أو ترجمة، فضلاً علي سائر المقالات والمقابلات المنشورة .

أ - مؤلفاته الشعرية :

مجموعة دواوين هى: الناس في بلادى، أقول لكم، أحلام الفارس القديم، تأملات في زمن جريح، شجر الليل، الإبحار فى الذاكرة .

ب - فى المسرح الشعرى: قدم خمس مسرحيات هى : -

١ - **مأساة الحلاج:** التى تعالج أزمة المثقف فى عصره، أو أزمته فى نفسه في عقد الستينيات، حين ضاق الإنسان بواقعه فراح يتساءل: هل يرفع سيفه أم يطلق كلمته؟ وعلي الجملة فالمسرحية تعد مناقشة لقضية التزام الفنان.

٢ - **مسافر ليل:** وهى مسرحية يمكن أن نطلق عليها (كوميديا سواء) وتعرض لقضية علاقة الفرد بالسلطة، ومدى الاستبداد أو الدكتاتورية التى تبنى عليها بعض الأنظمة الحاكمة سياستها مستخدمة فى ذلك الممارسات القمعية، وأجهزة الاستخبارات المتفننة فى تلفيق التهم وإلصاقها بالأبرياء وماإلى ذلك .

٣ - **الأميرة تنتظر** ٤ - **ليلي والمجنون** ٥ - **بعد أن يموت الملك**

جـ - فى مجال الكتابات النقدية: ترك عبد الصبور عدة مؤلفات هامة هى:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١ - أصوات العصر .
٢ - حتى نقهر الموت .
٣ - حياتى فى الشعر .
٤ - ماذا يبقى منهم للتاريخ ؟
٥ - وتبقي الكلمة .
٦ - قراءة جيدة.
٧ - على مشارف الخمسين .
٨ - رحلة الضمير المصرى الحديثة.

د - الترجمة :

ترجم لنا عبد الصبور مسرحيتى سيد البنائين: لهنريك إبسن، وحفلة الكوكتيل: لـ(ت - س - اليوت) .

هذا وقد تخيرنا قصيدة (أحلام الفارس القديم) لنعرض لها بالنقد والتحليل بإذنه تعالى، وقد كان دافعنا إلى اختيارها متمثلاً في كونها تعد حاملة سمات وشيات ديوان بأكمله، وأنها أهم ماجاء فى هذا الديوان من إبداع شعرى، أو هى تمثل مرحلة خصبة حية وناضجة من مراحل مسيرته الإبداعية، ولأن صاحبه استطاع - كما قال بذلك بعض النقاد - أن يجمع بين عمق الفكرة وفنية الشكل، كما نهضت بأن تكون شاهداً ملموساً علي مدى توفيق شاعرها في إحداث الملائمة بين روح التراث ومنطق العصر ولغته، حسبنا ماقاله عنها الدكتور الشاعر/ غازى القصيبى، من أنها (أجمل ماكتبه الشاعر علي الإطلاق، وهى بالتأكيد واحدة من أجمل القصائد العربية التى كتبت خلال الربع قرن الأخير) [١] وفوق هذا وذاك فهى قصيدة درامية حوارية تكثر فيها الشخوص، وتتعدد الأصوات، وتنهض على تقنيات تعبيرية تستقطب التركيب والتعقيد كالمفارقات والتكرار المنوع وماإلى ذلك مما يغرى بالدراسة ويشجع على التناول والمعالجة .

---

(١) الشعر وهموم الإنسان المعاصر صـ١٢٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نص القصيدة

أحلام الفارس القديم[١]

* * * * * * * * * * * *

لو أننا كنا كغصنى شجرة

الشمس أرضعت عروقنا معا

والفجر روانا ندى معا

ثم اصطبغنا خضرة مزدهرة

حين استلطلنا فاعتنقنا أذرعا

وفى الربيع نكتسى ثيابنا الملونه

وفى الخريف، نخلع الثياب، نعرى بدنا

ونستحم فى الشتا، يدفئنا حنونا

* * * * *

ولو أنا كنا بشط البحر موجتين

صفيتا من الرمال والمحار

توجتا سبيكة من النهار والزبد

أسلمتا العنان للتيار

يدفعنا من مهدنا للحدنا معا

---

(١) انظرها كاملة فى ديوان (أحلام الفارس القديم) ضمن الأعمال الشعرية الكاملة لصلاح عبد الصبور صـ٢٤٢ - ٢٤٩ - طبعة دار العودة - بيروت ١٩٨٦م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فى مشية راقصة مدندنه

تشربنا سحابة رقيقة

تذوب تحت ثغر شمس حلوة رقيقه

ثم نعود موجتين توأمين

أسلمتا العنان للتيار

فى دورة إلى الأبد

من البحار للسماء

من السماء للبحار

* * * * *

لو أننا كنا بخيمتين جارتين

من شرفة واحدة مطلعنا

فى غيمة واحدة مضجعنا

نضئ للعشاق وحدهم وللمسافرين

نحو ديار العشق والمحبه

وللحزانى الساهرين الحافظين موثق الأحبه

وحين يأفل الزمان ياحبيتى

يدركنا الأفول

وينطفئ غرامنا الطويل بانطفائنا

يبعثنا الإله فى مسارب الجنان درتين

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بين حصى كثير

وقد يرانا ملك إذ يعبر السبيل

فينحنى، حين نشد عينه إلى صفائنا

يلقطنا، يمسحنا فى ريشه، يعجبه بريقنا

يرشقنا فى المفرق الطهور

* * * * *

لو أننا كنا جناحى نورس رقيق

وناعم، لايبرح المضيق

محلق على ذؤابات السفن

يبشر الملاح بالوصول

ويوقظ الحنين للأحباب والوطن

منقاره يقتات بالنسيم

ويرتوى من عرق الغيوم

وحينما يجن ليل البحر يطوينا معاً... معا

ثم ينام فوق قلع مركب قديم

يؤانس البحارة الذين أرهقوا بغربة الديار

ويؤنسون خوفه وحيرته

بالشدو والأشعار

والنفخ فى المزمار

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لو أننا

لو أننا

لو أننا، وآه من قسوة «لو»

يافتنتى، إذا افتتحنا بالمنى كلامنا

لكننا .....

وآه من قسوتها «لكننا»

لأنها تقول فى حروفها الملفوفة المشتبكه

بأننا ننكر ماخلفت الأيام فى نفوسنا

نود لو نخلعه

نود لو ننساه

نود لو نعيده لرحم الحياه

لكننى يافتنتى مجرب قعيد

علي رصيف عالم يموج بالتخليط والقمامه

كون خلا من الوسامه

أكسبنى التعتيم والجهامه

حين سقطت فوقه فى مطلع الصبا

* * * * *

قد كنت فيما فات من أيام

يافتنتى محارباً صلباً، وفارساً همام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من قبل أن تدوس فى فؤادى الأقدام

من قبل أن تجلدنى الشموس والصقيع

لكى تذل كبريائى الرفيع

كنت أعيش فى ربيع خالد، أى ربيع

وكنت إن بكيت هزنى البكاء

وكنت عندما أحس بالرثاء

للبؤساء الضعفاء

أود لو أطعمتهم من قلبى الوجيع

وكنت عندما أرى المحيرين الضائعين

التائهين فى الظلام

أود لو يحرقنى ضياعهم، أود لو أضيئ

وكنت إن ضحكت صافياً،، كأننى غدير

يفتر عن ظل النجوم وجهه الوضيئ

ماذا جرى للفارس الهمام ؟

انخلع القلب، وولى هارباً بلا زمام

وانكسرت قوادم الأحلام

يامن يدل خطوتى على طريق الدمعة البريئه

يامن يدل خطوتى على طريق الضحكة البريئه

لك السلام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لك السلام

أعطيك ماأعطتنى الدنيا من التجريب والمهاره

لقاء يوم واحد من البكاره

لا، ليس غير (أنت) من يعيدنى للفارس القديم

دون ثمن

دون حساب الربح والخساره

* * * * *

صافية أراك ياحبيبتى كأنما كبرت خارج الزمن

وحينما التقينا ياحبيبتى أيقنت أننا

مفترقان

وأننى سوف أظل واقفاً بلا مكان

لو لم يعدنى حبك الرقيق للطهاره

فنعرف الحب كغصنى شجره

كنجمتين جارتين

كموجتين توأمين

مثل جناحى نورس رقيق

عندئذ لانفترق

يضمنا معاً طريق

يضمنا معاً طريق

* * * * *

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التعليق النقدى

يمثل صلاح عبد الصبور (١٩٢٨ - ١٩٨١م) علامة بارزة مميزة على خارطة الشعر العربى المعاصر، وتتسم أعماله الإبداعية بصفة عامة بتمحورها حول عنصرين يتداخلان ولاينفصلان هما (الهم الإنسانى والالتزام)؛ بحيث تقرأ فيه الهموم المصرية، والتعاطف مع البؤساء، والرقة للمكدودين، ومحاولة إنارة الدروب للحيارى التائهين فى مسارب الحياة، ونضالاً بلا حدود ضد رموز البطش والاستبداد، ومجابهة لخفافيش الظلام التى تدبر الأمور بليل للإيقاع بالأحرار والنخبة الفكرية والجماهير المقهورة بصفة عامة .

وتقرأ فى إبداعاته كذلك النفور من الأثرة والأنانية الممجوجة، إلي جانب الثورة والتمرد على الطغمة الفاسدة، والحسرة على الهمم القواعد والعزائم الرواكد، مما يشى بحق بأنك أمام شاعر ملتزم، آثر أن ينزل من قمة الأبراج العاجية ذات الأسوار العالية إلى دنيا الناس، فيلتحم بالجماهير، يغنى لأفراحهم، ويبكى أتراحهم، ويجسد طموحاتهم، ويرسم أحلامهم .

وينقب عن الأسباب والعلل الكامنة وراء الظواهر والمسببات؛ ليؤكد على حقيقة أن الشعر لديه عبارة عن معايشة للحياة، لكن عبر إطار مختلف لايكتفى فيه بالنقل الحرفى الأمين، أو رصد الأحداث والظواهر من الخارج وفقط، إنما - فوق ذلك - تجده يبحث فى المطاوى عن البواعث، وفى الأغوار عن الأسباب، وفي تلافيف المستحيل عن الممكن الذى قد يوحى بتفسير ماللأحداث والمسببات، ولعل هذا يفسر خلو شعره - أو يكاد - من ألوان العبث الشعرى المتمثلة في **المناسبات والإخوانيات والمداعبات** مثلاً .

مثل هذا لايتأتى إلا لشاعر ذى رسالة سامية، وعلى وعى شامل بمهمته في الحياة، وعلى قدر كبير من الإيمان بقداسة الكلمة وشفافيتها، والاعتقاد بأن الفن هو الذى ينهض بالأمم ويصنع الحضارات ويذود عنها ضد عوامل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذوبان والاندثار، استمع إليه يقول «لايقهر الموت إلا الحجر والكلمة، والكلمة أطول عمراً من الحجر، وأصلب علي الزمن، وأقدر علي مغالبته، فالأهرام وكتاب الموتى ولدا في يوم واحد من أيام التاريخ التى هى كألف يوم مما يعدون أو تزيد، ومازالا يتنفسان أنفاس الحياة حتى غدنا وبعد غدنا وقد يأكل الزمن المتطاول من الأهرام حجراً فحجراً، ولكنه لن يسقط من كتاب الموتى كلمة واحدة، بل قد يزحم صفحاته بالحواشى والتعليقات، وقد قرحت الأيام جسد امرئ القيس بن حجر، بعد أن وارت أباه حجراً فى ترابها ،ولكن كلمة قالها ظلت تتفتح كقرص الشمس جيلاً بعد جيل، فوهبت الجسد القريح حياة خالدة.... الفن هو خلود الأمة الحق، فالأمم لاتخلد بالانتصارات والمعارك، لقد شنت قرطاجنة العظيمة - كما قال بريخت- ثلاث حروب، انتصرت فى الأولى، وأكدت انتصارها في الثانية وانهارت في الثالثة، وحين انهارت انسحبت من التاريخ، وكأن هذا المجد كله لم يكن؛ لأنها لم تستطع أن تبدع فناً، وإذا نظرنا حولنا وجدنا أمة كالترك العثمانيين، اجتاحوا الشرق العربى اجتياحاً، ودقت سنابك خيلهم قلب أوربا، وحين انهار مجدهم العسكرى، ومسحت الأيام الغبار الكثيف الذى أثارته السنابك، أمست الترك أمة مقهورة من صغار الأمم، ومن نحن؟ ومن أجدادنا العرب لولا حكيمنا القومى محمد العظيم عليه السلام، ولولا هؤلاء الذين خرجوا من تحت خبائه فتفرقوا فى الأرض والتاريخ فلاسفة وفقهاء وشعراء ومؤرخين وناثرين وأهل جدل ومصورين وبناة مآذن ونحّاتى رخام وحجر، وناقشى منابر، ومشربيات وشبابيك، ومرتلين للقرآن بالقراءات السبع والعشر، وقصّاصين للملاحم والبطولات على أنغام الربابة والمزمار، ومن نحن؟ وماحاضرنا ومستقبلنا؟ وكيف ستذكرنا الأجيال القادمة، بل الأمم القادمة إذا لم يبق منا شعر رفيع أو فن رائع)[١].

---

(١). حتى نقهر الموت - صلاح عبد الصبور صـ٥ ومابعدها- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإلمام بهذا الدور الهام والخطير للكلمة يلقى بظلاله الكثيفة على الشاعر أو الفنان بصفة عامة، ويحصر أيامه الحياتية والفنية فى المسافة بين تحمل المسئوليات الضخام، واحتمال أعباء الهداية والإرشاد والإصلاح والبحث عن عالم سعيد ترف فيه الأحلام العذاب؛ ويتندى فيه الزمان والمكان، حتى إذا مااشتجرت ضده القوى المعادية أو الظلامية وراحت تقعد له بكل مرصد لاح له الاستشهاد فى صورة المنقذ الوحيد أو المخلص الفادى، ولقد كشف عبد الصبور هذه الحقيقة حينما قال فى مسرحيته (مأساة الحلاج) .

إبراهيم: مولاى

أخشى أن يدركك الكيد الظالم

ماذا تنوى؟

يامولاى

الظلم بكل مكان

والجنة آخر سعى الإنسان

لاأول سعيه

هذا وبإنعام النظر فى القصيدة التى بين أيدينا تكشفت لنا عدة ظواهر نحاول رصدها فيما استجد من صفحات .

ا - العنوان ودلالته الرمزية :

القارئ فى الشعر العربى المعاصر يلحظ ظاهرة هامة تكاد تميزه من غيره على مر العصور، وأعنى بها (عنونة القصيدة) إن لم يكن الديوان؛ بحيث تجد الشعراء المعاصرين يعنون بوضع عنوانات لقصائدهم، ثم ينسحب الأمر على كل الدواوين التي يصدرونها أو يقومون بنشرها .

وقد نعد هذا تطويراً في شكل القصيدة العربية إذا نظرنا إليه من هذه الزاوية وداخل هذه المساحة الزمنية خاصة، ولقد تصدق هذه الرؤية إذا ماقارناها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالقصيدة السابقة على هذه الفترة؛ إذ كانت حتى عصر شوقى وجيله ﴿تتشكل من عدة محاور وتستوعب أكثر من قضية أو موضوع؛ لتكون وفية - بذلك - لتقاليد عمود الشعر العربى؛ وليس غريباً - والأمر كذلك - أن تخلو كثير من قصائد شوقى وجيله من العنوان، بل إن الديوان نفسه (الشوقيات) يحمل تسمية تدل على نسبة الشعر إلى الشاعر لاعلى عنوان قصيدة من شعره .

وقد اختلف الحال لدى كل من الشاعر الرومانسى والمعاصر (الحر)؛ حيث صار العنوان عندهما عنصراً عضوياً فى القصيدة، بل في كل ديوان يصدره علي حدة، والشاعر لايختار العنوان - في قصيدة أو ديوان - اعتباطاً أو مصادفة؛ وإنما بعد قليل تأمل لأعماق تجربته؛ بحيث يأتى العنوان دالاً بشكل واضح - وربما مباشر - على ماأراد أن يستثيره لدى قارئه﴾(١).

يتصل بهذه الجزئية جزئية أخرى تشير إلى أن عنوان القصيدة التى بين أيدينا هو فى الوقت نفسه عنوان للديوان أيضاً، وهذه سمة بارزة كذلك فى ديوان الشعر العربى المعاصر، وليست قاصرة على صلاح عبد الصبور وحده، فالشاعر الجنوبى (أمل دنقل) يتخذ عنوان بعض قصائده - وهى (البكاء بين يدى زرقاء اليمامة) - عنواناً لأحد دواوينه، وهى القصيدة الذائعة الصيت التى يقول فيها :

أيتها العرافة المقدسة
جئت إليك... مثخناً بالطعنات والدماء
أزحف فى معاطف القتلى، وفوق الجثث المكدسة
منكسر السيف، مغبر الجبين والأعضاء
أسأل يازرقاء
عن فمك الياقوت عن، نبوءة العذراء

---

(١) سفر أمل دنقل - تحرير عبلة الرويني - مقال للدكتور/ طه وادى بعنوان (الزمن الشعرى في قصيدة الخيول) صـ٥١٥ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن ساعدى المقطوع..... وهو مايزال ممسكاً بالراية المنكسة

عن صور الأطفال في الخوذات..... ملقاة على الصحراء

عن جارى الذى يهم بارتشاف الماء....

فيثقب الرصاص رأسه..... في لحظة الملامسة

عن الفم المحشو بالرمال والدماء !!

أسأل يازرقاء[١]

وحين ينشر ممدوح عدوان مجموعته (عليك تتكئ الحياة) يتخذ عنوانها من عنوان إحدى قصائده التى يقول فيها[٢]: -

كفاك ترتعشان ياأبتى

وصوتك قد تهدج

وارتعد

بدأت خيانات الجسد

ماعاد صوتك زعقة النسر المطل على الحمائم كالغضب

ماعاد يدوى فى فضاء البيت زلزالا

تجف به المفاصل كالحطب

..... القصيدة

---

(١) ديوان البكاء بين يدى زرقاء اليمامة - أمل دنقل - ضمن أعماله الشعرية الكاملة صـ١٢١ الطبعة الثانية ١٩٨٥م - دار العودة - بيروت - منشورات - مكتبة مدبولى - القاهرة .

(٢) عليك تتكئ الحياة - ممدوح عدوان صـ١٥٨ - ١٥٩- ا لطبعة الأولي ١٩٩٩م- الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة - سلسلة (آفاق الكتابة) .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولايبعد (وليد منير)[١] عن مثل هذا الصنيع حينما يتخذ لآخر إصداراته الشعرية (سيرة اليد وأربعون نافذة على صباح في التيه) عنوان إحدى قصائده التي يقول فيها عن الشمس :

أودع بيتى صباحاً فتدخل
ثم أعود إذا أوشكت
أن تحزم أثوابها للرحيل
والتقينا معا
عند صاحبنا البحر ذات أصيل
فقلت: البيت وقتان؟
قالت: بل الوقت بيتان
وانسحبت
وقد اشتعل الخد بالأرجوان
أنـا
وشريكة بيتى
بعيدان
لكنا نتقاسم نفس المرايا

---

(١) شاعر مصرى معاصر، من مؤسسى جماعة إضاءة ١٩٧٧م، ولد فى ١٩٥٧/٢/١٣م بالقاهرة، تخرج فى كلية الهندسة - جامعة الأزهر عام ١٩٨٠م، حصل على الماچستير فى النقد الأدبى من أكاديمية الفنون بالقاهرة ١٩٨٧م عن أطروحته (خصائص اللغة الشعرية فى مسرح صلاح عبد الصبور) كما حصل على الدكتوراه فى النقد الأدبى من الأكاديمية عام ١٩٩٠م عن أطروحته (جدلية اللغة والحدث فى الدراما الشعرية العربية الحديثة، صدر له الرعوى - القاهرة ١٩٨٤م، النيل أخضر فى العيون - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥م، وغيرهما، وله فى الدراسات النقدية: فضاء الصوت الدرامى - الهيئة المصرية ١٩٩٢م، ميخائيل نعيمة ١٩٩٢م عن الهيئة المصرية، انظر: إضاءة ٧٧ (يوليو ١٩٧٧ - نوفمبر ١٩٨٨) صـ٥١٥-٥١٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ونفس الأوانى
ونفس الفراغ الضئيل
هكذا[١]

ويمكن أن تلمس مثل هذا السلوك فيما نظم نزار قبانى كما فى (طفولة نهد) و(قصائد متوحشة) مثلاً، وفاروق جويدة كما في ديوانه (فى عينيك عنوانى) ومحمد الماغوط كما فى مجموعته (حزن في ضوء القمر) ومحمد فهمى سند كما فى ديوانه (مقدمة للبوح) وعزت الطيرى كما في ديوانه (افتحى الصيف لى) ود/ كمال نشأت كما فى ديوانه (أحلى أوقات العمر) وفولاذ عبد الله الأنور، كما فى ديوانه (شارات المجد المنطفئة) ويسرى خميس كما فى ديوانه (قبل سقوط الأمطار) وعصام الغزالى كما فى ديوانه (الإنسان والحرمان) وديوانه (أهددكم بالسكوت) وغير هذا كثير وكثير مما تعج به خريطة الشعر العربى المعاصر، وكله يلتمس العنوان للديوان أو المجموعة الشعرية من عنوانات بعض القصائد مما يقطع حقاً بأننا أمام ظاهرة فنية لانجد لتعليلها إلا بعض الرؤى المنحصرة تارة فى الاعتزاز بهذه القصيدة خاصة، أو أنها تمثل أهم ماجاء في الديوان ثانية، ولربما مثلت درة عقده وواسطة قلادته ثالثة، أو أنها ربما هى - لاغيرها - الجديرة بعكس الطابع العام للديوان وللشخصية معا رابعة، أو أنها تحمل سمات فنية عامة ورئيسية لسائر قصائد الديوان أو المجموعة الشعرية تارة أخرى .

هنا يبدو الديوان واجهة عرض رامزة ومشيرة بقوة إلي ماينحنى عليه، كما تبدو القصيدة كذلك ﴿مرحلة أساسية وهامة من مسيرته الشعرية؛ لأن كل ديوان هو شوط قطعه الشاعر على درب النضج والاكتمال﴾[٢].

---

(١) سيرة اليد وأربعون نافذة على صباح فى التيه - وليد منير - صـ١٣٠ - ١٣١- سلسلة كتابات جديدة - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م .

(٢) الشعر وهموم الإنسان المعاصر - د/ إخلاص فخرى عمارة صـ١٨١- الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٢م - مكتبة الآداب - القاهرة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذا العنوان الذى بين أيدينا (أحلام الفارس القديم) مكون من جملة ذات دلالات رحيبة وإيحاءات عميقة، جملة شكلتها ثلاث مفردات (أحلام) أى طموحات ورغبات وآمال وتطلعات واستشرافات، وأيضاً انكسارات وانهزامات، حسبك من هذا أن الحلم غير الواقع والحقيقة، وكلمة أحلام تشى بسخط علي الواقع ونفور من هذا العالم المائج بالتخليط والقمامة كما سنرى .

و(الفارس) يوحى بالفروسية والنبل والمروءة واقتحام الهيجاء والنضال بكل سبيل لإحراز المزيد من الأمجاد والانتصارات التى تدعو إلى الزهو والفخر وتستقطب الثناء والمدح .

ولفظة الفارس تستدعى - فى الذهن - صورة الخيل، وهى التى (معقود بنواصيها الخير) وهى التى تستحضر دلالات الخيلاء والخيالة والخال والعزة والأنفة العربية، على اعتبار أن الخيل تعد من أهم أدوات النصر في الحروب حتى مطلع النهضة الحديثة، ولو لم تتحقق فيها هذه الخاصية الهامة والمثيرة ماأشار إليها الحق تبارك وتعالى حين قال ﴿**وأعدوا لهم مااستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم....**﴾(١).

وحينما يستخدم الشاعر لفظ الفارس فإنما يتطلب هذا منا أن نشير إلى أن هناك قاسماً مشتركاً يكاد يوجد بين الشاعر والفارس، هذا القاسم يتجسد فى المعاناة وبسط النفوذ والسيطرة التامة على الأدوات والوسائل، يقول الدكتور أحمد درويش: ﴿المعاناة التى يبذلها الشاعر أمام الكلمة المشعة والفارس أمام الخيل الجامحة لاتختلف كل منهما عن الأخرى كثيراً، فكل من الشاعر والفارس يسعى إلى أن يسيطر علي المسار، ويتحكم في التوجيه، ويستغل القوة المتاحة له فيشكلها فى درجة معينة من الحرارة لاتنزل عنها فتبرد بين يديه، ولاترتفع فوق طاقته على التوجيه فتوقعه تحت سنابكها، أو

---

(١) الأنفال بعض الآية الثامنة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على الأقل تدع المرئيات والمسموعات أمامه مضطربة فتتحول إلى أشباح وضوضاء، لكن هناك فرقاً جوهرياً يبقى مع ذلك بين لونى المعاناة، ويكمن فى اتجاه مسار الترويض في كل منهما، فعلى حين أن الخيول برية الأصل...؛ ومن ثم فإن اتجاه الترويض يكون نحو محور الاستئناس، أما الكلمات المستأنسة فيحاول الشاعر أن يردها من خلال الترويض إلى حالة (البرية) أو الطبيعية، أو على حد تعبير (چان بول سارتر) إن الشاعر قد اختار موقفاً شعرياً من الكلمات، وهو أن يتعامل معها على أنها (أشياء) لا (دوال)، إن المرء العادى حين يتكلم يضع نفسه وراء الكلمات قريباً من الموضوع، لكن الشاعر يضع نفسه أمام الكلمات التى تعد بالنسبة للمرء العادى مروضة، وبالنسبة للشاعر في حالة برية، إنها بالنسبة للمرء العادى عرف وأدوات يستخدمها ثم يلقيها، ولكنها بالنسبة للشاعر أشياء طبيعية تنمو على الأرض كالحشائش والأشجار»(١).

فإذا ماعرضنا لمفردة (القديم) وجدناها جاءت نعتاً أو وصفاً (للفارس)، وآنئذ نستطيع أن نقرأ فيها دلالات الأصالة والمهابة والجلالة والعراقة من جهة، كما نلمح منها أيضاً معانى الحنين والشوق والالتفاف إلي الماضى مع لهفة ساخنة شجية ومؤثرة من جهة ثانية، ومن جهة أخرى - وهذا هو المهم- نستشف من خلل حروفها أننا أمام فارس مهيض الجناح، متكسر الأدوات والعتاد، ويعيش فى عصر غير عصره، لم يعد مؤهلاً لخوض غماره، وعلى الرغم من تلك تراه يحمل بين جنبيه هموماً إنسانية محرقة، تلفحه الذكرى فيحن للماضى، ويدفعه الطموح فيتشبث بالحلم الجميل .

باختصار - وانطلاقاً من مجموع هذا العنوان (أحلام الفارس القديم) - نحن أمام رجل كان فارساً، انتهى زمن فروسيته فولى ولم يخلف وراءه غير

---

(١) ينظر: الرمز والبناء فى قصيدة الخيول- مقال للدكتور أحمد درويش - ضمن كتاب (سفر أمل دنقل) صـ٥٢٩-٥٣٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذكريات شائهة مضببة بدت وكأنها طيف جميل رآه النائم ثم أصبح وقد بهتت معالمه وشحبت خيوطه ولم يبق منه سوى نتفاً ضئيلة لاتنهض بتجسيده تجسيداً حياً أو حقيقياً، لكنه مع ذلك لايملك إلا أن يحن ويتشوق ويحلم بـ(عالم سعيد) قد يفلح فى تبديل عذاباته، وانتشاله من وهدات الضياع التى جرعته كؤوس المرارة وأشعرته بالعجز والإخفاق والتململ والانكسار.. وربما لو نظرت إلى مثل هذه الحوائل اللغوية والتصويرية تأكدت لديك هذه الرؤية الانهزامية، لاحظ (لو أننا) ومدى تكرارها على امتداد القصيدة، ولاحظ كذلك (وآه من قسوة لو) و(لكننا) و(آه من قسوتها لكننا) ولاحظ أيضاً (نود لو نخلفه - نود لو ننساه - نود لو نعيده لرحم الحياة - كون خلا من الوسامة - أكسبنى التعتيم والجهامة - حين سقطت فوقه فى مطلع الصبار - على رصيف عالم يموج بالخليط والقمامة .... إلخ هذه المتغيرات اللغوية والتصويرية التى تشى بأن عبد الصبور كان على وعى تام بدلالات المفردات التى انتقاها لتكون عنواناً لقصيدته، أو رمزاً للنخبة الفكرية المقهورة، وبالتالى رمزاً للفنان الملتزم والمثقف المهموم عامة .

٢ - النزعة التشاؤمية :

بإنعام النظر فى القصيدة تبين أن هناك نزعة تشاؤمية أنتجت عدة عواطف غائمة أو قاتمة كادت تغلف سائر أجزاء القصيدة، وتعليل ذلك جدير، فالشاعر يحس بثقل الهموم والأعباء وضخامة المسئولية الفنية خاصة إننا نرثى لحاله ونرق لمأساته حينما نجد أن شعره - الذى نفحه كل جهده وطاقات احتشاده ويرصد له كل أضواء عينيه يتنكر له ويوشك على تسليمه إلى أعدائه[١]،

---

(١) أحيلك هنا إلي قوله فى مطلع قصيدته (أغنية للشتاء) ديوانه صـ١٩٣ - ١٩٤ .

ينبئ شتاء هذا العام أننى أموت وحدى

ذات شتاء مثله، ذات شتاء

===

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأن أعوامه الماضية ذهبت سدى ولم تخلف له إلا المزيد من الشعور بالحزن العميق.

وحينما نبحث عن دواعى أو بواعث هذا الحزن فسوف نجد - فوق ماأشرنا إليه - المفارقة بين الأحلام والطموحات والواقع الأسيان الممض، مما قد يخلق لديه نوعاً من الشعور بالغربة الخانقة والإحساس بالوحدة والانفصال عن الجماعة، ومع المفارقة بين الحلم والواقع يكمن شجن الفنان ورغبته فى تجاوز هذا الواقع الضيق الفقير الكئيب إلى آفاق الحلم الفسيح الثرى الوضيئ، ثم عجزه عن تحقيق تلك الرغبة لاتساع الفجوة بين الحلم والواقع، فيظل ممزقاً بالصراع طول حياته، ليس هذا فحسب، بل إنه يرى نفسه بسبب تطلعه لذلك الحلم غريباً وحيداً متفرداً، إنه لايستطيع أن يكون كالآخرين الذين تبلد حسهم، وارتضوا واقعهم الفقير، ولايتمكن من أن يرفعهم إليه كى يحققوا معه الحلم النبوءة؛ ولذا تخنقه الغربة، ويمضه الإحساس بالوحدة فيلوذ بالشعر والغناء، وبرغم كل إنجازاته الهامة في مجال الشعر والمسرح والنقد فإن عذابه الناتج عن

=== ينبئنى هذا المساء أننى أموت وحدى
ذات مساء مثله، ذات مساء
وأن أعوامى التي مضت كانت هباء
وأننى أقيم فى العراء
ينبئ شتاء هذا العام أن داخلي
مرتجف برداً
وأن قلبى ميت منذ الخريف
قد زوى حين زوت
أول أوراق الشجر
ثم هوى حين هوت
أول قطرة من المطر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إحساسه بضآلة العطاء، ومحدودية البذل، وضيق الإمكانات كان يلاحقه دائماً»(١).

فى ضوء هذا الطرح لانعجب حينما نجده يقول في صدر ديوانه (أحلام الفارس القديم)(٢).

معذرة ياصحبتى لم تثمر الأشجار هذا العام
فجئتكم بأردأ الطعام
ولست باخلاً، وإنما فقيرة خزائنى
مقفرة حقول حنطتى

* * * * *

معذرة ياصحبتى ، فالضوء خافت شحيح والشمعة الوحيدة
التى وجدتها بجيب معطفي أشعلتها لكم
لكنها قديمة معروفة لهيبها دموع
معذرة ياصحبتى، قلبى حزين
من أين آتى بالكلام الفرح

وعملية المفارقة بين الحلم والواقع - والذى كما سبق وأشرنا أسهم في تكثيف عنصر التشاؤم وإنتاج العواطف الغائمة - أبرزها لنا عبد الصبور في مقاطع عدة داخل سياق القصيدة نكتفى هنا برصد بعضها، ففى مفتتح

---

(١) الشعر وهموم الإنسان المعاصر صـ١٢٢، وقد عبر عن ذلك حينما قال فى صدر ديوانه (الناس فى بلادى) «كان ما أحاوله فى هذا الديوان كبيراً، كالشعر، كالفن، كالحياة، ولكن حين خرج إلى الوجود، لم يكن إلا قصائد تنبئ عن مجهود شاعر عربى فى الثلاثين من عمره، كتبها وهو يلهث فى الليل خوفاً من أن يسفر النهار عن نثر أيامه البغيض».

(٢) من قصيدة (مفتتح) صـ١٨٩ - ١٩٠.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القصيدة وجدنا الشاعر يجسد الحلم الزاهى ويحشد لذلك ثلة من المفردات والصور الموحية المعبرة؛ بحيث تراه يحلم بأن يكون كغصنى شجرة، أو موجتين بشط البحر، أو جناحى طائر النورس، أو نجمتين جارتين سابحتين فى الفضاء، ويحلم كذلك بالشمس والفجر وقد رويا العروق، بالربيع يهب الثياب الملونة، ويحلم أيضاً بدفء الشتاء، وتعر الخريف، ..... إلخ مايتنوع على هذا الأساس داخل سياق القصيدة، انظر إليه يقول: -

لو أننا كنا كغصنى شجرة
الشمس أرضعت عروقنا معا
والفجر روانا ندى معا
ثم اصطبغنا خضرة مزدهرة
حين استطلنا فاعتنقنا أذرعا
وفى الربيع نكتسى ثيابنا الملونه
وفى الخريف، نخلع الثياب، نعرى بدنا
ونستحم في الشتاء، يدفئنا حنونا
لو أننا كنا بشط البحر موجتين
صفيتا من الرمال والمحار
توجتا سبيكة من النهار والزبد
أسلمتا العنان للتيار
يدفعنا من مهدنا للحدنا معا
في مشية راقصة مدندنه
تشربنا سحابة رقيقه
تذوب تحت ثغر شمس حلوة رقيقه
ثم نعود موجتين توأمين
أسلمتا العنان للتيار

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فى دورة إلى الأبد
من البحار للسماء
من السماء للبحار

وحين يكرر بصره فى واقعه يراه جهماً قاسياً مضبباً منفراً، فهو واقع بئيس مفعم بالتخليط والقمامة، خال من الابتسام والوسامة، حين تفتحت عليه عيناه - منذ صباه - لم يجن من ورائه إلا التعتيم والجهامة، يقول:-

لكننى يافتنتى مجرب قعيد
على رصيف عالم يموج بالتخليط والقمامه
كون خلا من الوسامه
أكسبنى التعتيم والجهامه
حين سقطت فوقه فى مطلع الصبا

وهو واقع يموج بالبؤساء والمكدودين الذين تمنى الشاعر أن يطعمهم من قلبه الوجيع، وبالحائرين التائهين في سراديب الظلام والذين أحرق الشاعر ضياعهم فجعله يود أن يرشدهم ويضئ لهم الدروب، وهو واقع ملئ بالتناقضات بحيث تستحيل فيه الشموس والصقيع جلاداً يلهب الظهور فيذل كبرياء الشريف المهيب، نلحظ ذلك من خلال تمنيه العودة إلى رحاب الماضى أيام كان فارساً هماماً أو محارباً بمنيداً، فيقول: -

قد كنت فيما فات من أيام
يافتنتى محارباً صلباً، وفارساً همام
من قبل أن تدوس فى فؤادى الأقدام
من قبل أن تجلدنى الشموس والصقيع
لكى تذل كبريائى الرفيع
كنت أعيش فى ربيع خالد، أى ربيع !

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكنت إن بكيت هزنى البكاء
وكنت عندما أحس بالرثاء
للبؤساء الضعفاء
أود لو أطعمتهم من قلبى الوجيع
وكنت عندما أرى المحيرين الضائعين
التائهين فى الظلام
أود لو يحرقنى ضياعهم، أود لو أضيئ

بمثل هذا يتضح كيف سيطرت الأمزجة السوداوية الحزينة والعواطف الملتاعة الغائمة، ولايعترض على هذا اللون القاتم بوجود مجموعات من المفردات والصور ذوات الإيحاءات والدلالات المشرقة؛ لأنها جاءت فى صورة حلم أو طموح أو هروب من الواقع الممض، والتوق إلى عالم بديل ينشد فيه مزيداً من الراحة والسعادة، الأمر الذى يقطع بسيطرة الحس التشاؤمى على القصيدة .

٣ - إشكالية الحنين إلى الماضى :

من المسلم به أنه منذ العصور الموغلة فى القدم كان باب الحنين يشغل - ولايزال - مساحة كبيرة فى ديوان الشعر العربى، فلقد طرقه الشعراء منذ العصر الجاهلى، وبرزت مظاهره واضحة فى إبداعاتهم، ودلت على أنه نتيجة طبيعية لحياتهم القبلية المعتمدة كلية على التنقل والترحال طلباً للكلأ والعشب، أو لهثاً وراء ينابيع المياه ومساقطها، ولربما كان من أهم مظاهر الحنين فى الشعر الجاهلى هو الكامن في استهلال القصائد بمقدمات تتسم بسمات منها التجريد ومخاطبة الصاحب، وبكاء الأطلال والدمن والديار، ثم البكاء على أهلها الظاعنين، فوصف لحظات الوداد والتحاب فى رحاب الطبيعة الساحرة، فالمقدمات جميعها لاتعدو أن تكون ذكريات وضرباً من الحنين إلى الماضى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والنزاع إليه، فإن الشعراء دائماً يرتدون بأبصارهم إلى الوراء، إلى أعلى جزء مضى وانقضى من حياتهم(١).

وشاعرنا يكمل مسيرة هؤلاء الشعراء حينما يلتفت إلي الوراء، إلى ماضيه الزاهي متمنياً عودته من جديد، فراراً من قسوة الواقع الرهيب المفعم بالويلات والمآسى، وهنا لايقتصر الماضى على عملية كونه هو وحده العالم المبهج الصافى إنما يستحيل رمزاً يجسد الحب الحقيقى الذى ينشده الشاعر ويحرق العمر بخوراً فى محرابه، وقد عكس لنا الشاعر ذلك من خلال بعض السياقات الموجودة في ترابط غصنى الشجرة، واتحاد الموجتين، وتجاور النجمتين، والتصاق جناحى النورس الناعم الرقيق سمير البحاره والمبشر بسلامة الوصول، هنا فقط يكون ربيعه الخالد، وضحكته الصافية صفاء الغدران.

لو أننا كنا كغصنى شجرة
لو أننا كنا بشط البحر موجتين
صفيتا من الرمال والمحار
لو أننا كنا نجمتين جارتين
لو أننا كنا جناحى نورس رقيق
وناعم، لايبرح المضيق
محلق علي ذؤابات السفن
يبشر الملاح بالوصول
ويوقظ الحنين للأحباب والوطن

والحنين - كما هو واضح من القصيدة - لم يؤطر فقط لصالح الماضى، إنما حاول أن يستشرف المستقبل، وأن يتمسك بأهداب الأمل حتى ولو بدى هذا

---

(١) ينظر: أبحاث ومقالات فى الأدب الأندلسى - د/ جميل عبد الغنى محمد على صـ٧٥- الطبعة الأولى ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأمل وميضاً متقطعاً أو حلماً يتكون على استحياء، فهو على أية حال حلم يود الشاعر لو تجسد أو تحقق .

يامن يدل خطوتى على طريق الدمعة البريئه
يامن يدل خطوتى علي طريق الضحكة البريئه
لك السلام
لك السلام
أعطيك ماأعطتنى الدنيا من التجريب والمهاره
لقاء يوم واحد من البكاره

وقد يتجاوز الشاعر ذلك حينما يدفع بقضيته إلى البحث عن المخلص والمنقذ من بين براثن هذا الواقع الممجوج الذى راح يصب عليه السخط واللعنات، ولن يكون المخلص هنا سوى الحبيبة، هى وحدها القادرة على إرجاعه إلى زمن الفروسية القديمة، زمن الصفاء القديم الخالد .

لا، ليس غيرك (أنت) من يعيدنى للفارس القديم
دون ثمن
دون حساب الربح والخساره
صافية أراك ياحبيبتى كأنما كبرت خارج الزمن
وحينما التقينا ياحبيبتى أيقنت أننا
مفترقان
وأننى سوف أظل واقفاً بلا مكان
لو لم يعدنى حبك الرقيق للطهاره
فنعرف الحب كغصنى شجره
كنجمتين جارتين
كموجتين توأمين
مثل جناحى نورس رقيق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عندئذ لانفترق
يضمنا معاً طريق
يضمنا معاً طريق .

٤ - تكثيف المفارقات :

باستقرائنا الظواهر الفنية الثلاث التى عرضنا لها (العنوان ودلالته - سيطرة النزعة التشاؤمية - إشكالية الحنين) يمكن القول أن هناك مجموعة من المفارقات حملتها القصيدة، أما الأولى فكانت بين الحلم والواقع وقد عرضنا لها، وأما الثانية فمفارقة بين المواقف المضادة، وطبعى هنا أن تحمل إحساسات متغيرة أو متباينة، بمعنى أنه إذا كان الواقع جهماً عنيفاً وقاسياً ومفعماً بالتخليط والقمامة فبدهى النفور منه والسعى للتخلص منه إن بالحنين إلى الماضى، وإن بالحلم بمستقبل واعد، وإن بالحب الصافى الشافى، وإن بالطموح إلى المخلص والمنقذ، لأننا .

نود لو نخلعه
نود لو ننساه
نود لو نعيده لرحم الحياه

وحينما يكون الحب أثيراً عذباً، والحلم شيئاً جميلاً جمال الحبيبة الفادية أو المنقذة فليس هناك مايمنع الشاعر من التمسك به حتى ينعم بالخلاص .

وحينما التقينا ياحبيبتى أيقنت أننا
مفترقان
وأننى سوف أظل واقفاً بلا مكان
لو لم يعدنى حبك الرقيق للطهاره
فنعرف الحب كغصنى شجره

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإذا كان فى الماضى يرق لحال البؤساء والمستضعفين، ويتعاطف مع قضاياهم ويقاسمهم همومهم على نحو مايحمله قوله:

وكنت عندما أحس بالرثاء
للبؤساء الضعفاء
أود لو أطعمتهم من قلبى الوجيع
وكنت عندما أرى المحيرين الضائعين
التائهين فى الظلام
أود لو يحرقنى ضياعهم، أود لو أضيئ

إذا كان هذا هو حاله فى الماضى فإن إحساسه قد تغير فى الحاضر؛ بحيث بدا وقد تلاشت ذلك التحمس فانقلب متبلد الحس فاقداً التعاطف مع الأحياء وحياتهم، وقد علل بأن الواقع أنهك قواه حتى غدا قعيداً، كما زاده تعتيماً وجهامة حتى انكسرت قوادم أحلامه فولى هارباً لايلوى علي شئ .

لكننى يافتنتى مجرب قعيد
علي رصيف عالم يموج بالتخليط والقمامه
كون خلا من الوسامه
أكسبنى التعتيم والجهامه
حين سقطت فوقه فى مطلع الصبا

* * * * *

ماذا جرى للفارس الهمام ؟
انخلع القلب، وولي هارباً بلا زمام
وانكسرت قوادم الأحلام

من مجموع هذا وغيره نستطيع أن نقول إن المفارقة تجسدت في الأبعاد الزمانية الثلاثة (الماضى - الحاضر - المستقبل)، وكان الماضى زاهياً صافياً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وساحراً فتاناً. وكان الحاضر موجعاً قاسياً أليماً متجهماً معتماً، فى حين بدا المستقبل جذاباً يغرينا بمعانقته والسعى الحثيث إليه، كما أن هذه المفارقة شكلت محور ارتكاز هام في القصيدة بحيث لم يكن ليغفله متلق لها، فهى متجسدة منذ لحظة البدء - إن لم يكن من العنوان - وحتى آخر مفردة فيها.

٥ - التكرار ودوره فى إثراء القصيدة :

يعد التكرار أحد أنواع طرق الخطاب الشعرى، كما يلعب أدواراً عدة في تشكيل القصيدة الحديثة؛ لأنه كان تأكيداً لفكرة أو عاطفة محورية تلح على الشاعر فيعود إليها مراراً، وربما لأنه قد يعكس حيرة أو تردداً للإحساس بالعجز عن البوح والإفضاء، أو لأنه بمثابة همزة الوصل بين المقاطع المختلفة فى القصيدة الطويلة، أو لأنه قد يؤدى جانباً إيقاعياً في النص ذا صلة بالوزن والمعنى، وقد يكسب التكرار الكلمة بعداً جديداً حتى قيل أنه يحييها وقد يميتها، وفوق ذلك قد يأتى التكرار - كما أشار النقاد العرب القدامى - للتهويل أو الوعيد أو الابتكار أو للتوبيخ أو الاستبعاد أو في مجال العاطفة أو لنكتة بلاغية وماإلى ذلك.

وقد يكون التكرار استهلالياً وآنئذ يفتح باباً سحرياً لإيقاع غالباً مايسيطر علي القصيدة؛ لأنه يحدد مناخها العام، وقد يأتى ختامياً تنهى به القصائد وكأنه يرادف لحظة الحل أو التنوير فى القصة القصيرة، أو كأنه لازمة لحنية أو جملة موسيقية تتردد بين وقت وآخر كى تحفظ الإيقاع الموسيقى للقصيدة[١]، غير أن للتكرار مواضع يحسن فيها وأخرى يقبح فيها، ويكتفى هنا بنموذج واحد لكل نوع حتى لانخرج عن خط سير البحث .

---

(١) راجع: شعر الحداثة مصر - الابتداءات - الانحرافات - الأزمة د/ كمال نشأت صـ٢٣٤ ومابعدها، وانظر: أصول النص الشعرى د/ يوسف حسن نوفل صـ١٣٠ - الطبعة الأولى ١٩٩٥م - الشركة العالمية المصرية للنشر لونجمان - القاهرة - وانظر: الشعر وهموم الإنسان المعاصر صـ١٢٩ ومابعدها .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فمن التكرار المستملح قول أحمد الحوتى الذى كرر فيه مفردة اليمامة ليشبع أجواء الأسى والشجن والرثاء لحالها، وكأنه يشاطرها الأحزان ويقدم إليها العزاء والسلوى مستخدماً أداة تساؤل الحيرى (من) فى البداية والختام، يقول: -

من هز غصنك يمامه ؟
من هزه؟
وطواه فى ليل القتامه
من غير هذا القهر أورثك الجهامه؟
من يايمامه؟(١)

أما التكرار الملفق المصطنع فأتصور أن خير مايمثله قول فوزى خضر الذى ألح فيه على تكرار الفعلين (يثنى - يدفع) حتى أوصلنا إلى درجة الملل والسأم دون داع .

ووجهك لاعب بالقلب
يثنينى ..... ويدفعنى
يثنينى ..... ويدفعنى
يثنينى ..... ويدفعنى
يثنينى ..... ويدفعنى(٢)

أرأيت إلى أى مدى أوصلنا التكرار إلى الفوضى والثرثرة والعشوائية غير المنضبطة ؟!

---

(١) مجلة إبداع - عدد إبريل ١٩٨٥م صـ١٦ .

(٢) راجع ديوانه (من سيمفونية العشق) صـ١١٦، ويشار هنا إلى أن هذا النمط السيئ يشكل ظاهرة عارمة فى شعر الحداثيين .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فإذا ماذهبنا نتحسس أدوار التكرار فى القصيدة التى بين أيدينا (أحلام الفارس القديم) وجدناها تمثل محور ارتكاز آخر - بعد المفارقة - فى بنائها الفنى، بحبيث وجدنا الشاعر يقوم بتكرير حرف ما، مثل حرف (النون) الذى كان شيوعه كبيراً فى جل سطور القصيدة، والأغرب من هذا أنه حينما يختفى هذا الصوت (النون) استعاض الشاعر عنه (بالتنوين) الذى هو أيضاً نون منطوقة لامكتوبة .

وقد يقوم بتكرار بعض أدوات الخطاب من مثل (لو - من) وماإلى ذلك.

وقد يكرر مفردة بعينها مثل (أود - نود - يدل - خطوتى - البريئة - السلام - الأحلام - جارتين - واحدة - الفارس - طريق - الهمام - ربيع - حبيبتى - نجمتين - موجتين - نورسين - طريق .... إلخ).

وقد يصبح التكرار جملة أو سطراً شعرياً كاملاً من مثل لو أننا كنا - لك السلام - يضمنا معاً طريق .

وقد جاء التكرار منسجماً مع سياق القصيدة، فكان تارة بمثابة بوح وإفضاء للشحنات النفسية المكبوتة فى قرارة الشاعر المصطدم بقساوة الواقع وجهامته والمتمنى العودة من جديد إلى زمن الحب والفارس القديم، ولامانع من البوح بأن التكرار هنا قد لعب دوراً هاماً فى تجسيد عنصر المفارقة والإحساسات المتغيرة المترتبة على ذلك، كما كشف عن عجز الشاعر على تعامله مع واقعه، وفوق ذلك كله كان له دور هام فى إثراء المناخ النغمى داخل سياق اقصيدة، فتكرار حرف النون إنما يشكل إطاراً موسيقياً يغلف القصيدة كلها، وحينما يقوم بتكرار (لو أننا - لو أننا - لو أننا) عدة مرات فى الجزء الأول والثانى فى القصيدة إنما يعطى انطباعاً بأن هذه الإيقاعات المنتظمة المتكررة تشبه إلى حد بعيد دقات القلب المتتالية والمتدفقة فى اتساق إلهى بديع .

ينضاف إلى ذلك أن (لو أننا) هذه قد لوحظ وجودها مكررة في المقاطع الأربعة الأول ﴿ثم تأتى تلك الضربات الثلاث، وبعد ذلك نجد أن أحد جزأى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجملة يتردد في أماكن مختلفة من بقية السطور، فإما (لو) وإما (أننا) وعلي نفس الطريقة نجد كلمات (كنت - أود - والضمير «نا» والتثنية في كلمات متتابعة: صفيتا - توجتا - أسلمتا ... إلخ»[١].

٦ - اللغة :

أساس مظهر العمل الإبداعى الأدبى يكمن فى لغته، أو بالأحرى بنائه اللغوى الذى ينقل إلى المتلقى خبرة جديدة منفعلة بالحياة، كما يقوم هذا البناء بتسخير القدر الكبير من المقومات اللغوية صوتية كانت أو إيحائية تصويرية .

والشعر استعمال خاص للغة، وإذا كانت اللغة هى «الظاهرة الأولي فى كل عمل فنى يستخدم الكلمة أداة للتعبير»[٢] فإنها الظاهرة الأولى التى تعكس أثر التراث وتبينه أيضاً، ونحن نكتب اليوم بلغة أجيال سبقتنا بامتداد وجودها فى الزمان عشرات القرون، منها نستمد سماتنا ومايميزنا، ومنها نرث - فيما نرثه - طرائقنا في التعبير وأسس لغتنا القومية[٣].

ولقد عرف الإنسان العالم يوم أن عرف اللغة، ولم يعرف الشعر إلا يوم أن أدرك قوة الكلمة «فالشعر استكشاف دائم لعالم الكلمة، واستكشاف دائم للوجود عن طريق الكلمة»[٤].

ولغة أى شاعر يتحكم فيها عاملان مهمان أحدهما هو: واقعه أو عصره الذى يعيش فيه ويتفاعل مع أحداثه ويندرج فى همومه ومشكلاته .

والآخر هو: طبيعة الموضوعات والمضامين التى يعرضها والقضايا التى يود معالجتها.

---

(١) الشعر و هموم الإنسان المعاصر صـ١٣٠ .

(٢) الشعر العربى المعاصر: قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية د/ عز الدين إسماعيل صـ١٧٣ - الطبعة الثالثة - دار الفكر العربى - القاهرة .

(٣) انظر: أثر التراث فى الشعر العراقى الحديث - على حداد صـ٢٢٩ - الطبعة الأولى ١٩٨٦م بغداد .

(٤) ينظر: الشعر العربى المعاصر صـ١٧٤ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فإذا مانظرنا إلى عصر شاعرنا وجدناه يموج بالقلق والتوتر اللذان يعد فى طليعة بواعثهما مدى الانفصام والتأزم فى علاقة المثقف بالسلطة، ثم ضيق الفنان - بصفة عامة والشاعر على نحو خاص - بالهموم الإقليمية والقومية التى جدت على الساحة وفرضت نفسها عليها بالقوة أو بالفعل، مما قد يدفعه أحياناً إلي الشعور بالغربة والرغبة فى الانفصال عن الجماعة، ناهيك عن المشكلات الطبقية والإصلاحية التى غرقت فيها المجتمعات العربية حيناً من الدهر، ودفعت الشعراء - من منطلق الالتزام لاالإلزام - إلى التصدى لها والبحث عن دواعيها واقتراح بعض الحلول لها .

عصر كهذا وقضايا كهذه إنما ينئ من سطوتهما جموع غفيرة، أو طبقات وشرائح عديدة هى بطبيعة الحال متباينة الثقافات والمشارب والتوجهات، الأمر الذى يهدى الشاعر إلى الوقوع على نمط خاص من اللغة - حتى يضمن الوصول برسالته أو قضيته إلى سائر الجموع - نمط ينفض عن كاهله مستوعر اللفظ وآبده، وغرابة المفردة وغموضها، ويتعانق فقط مع الوضوح والسلاسة وقرب المآخذ، بل لامانع من استخدام لغة الحياة اليومية أحياناً، لكن من غير إسفاف أو تبذل قد يزل به إلي الوقوع فى شرك العامية، قل يستخدم لغة قريبة من لغة الصحافة التى تدركها سائر الجموع علي اختلاف ثقافاتها اللغوية أو توجهاتها الفكرية، وهذا مالمسناه لدى شاعرنا، علي الأقل فى القصيدة التى بين أيدينا، فنحن لانجد غرابة أو غموضاً فى مثل هذه الكلمات (الشمس - شجرة - الفجر - خضرة - اعتنقنا - الربيع - الثياب - الملونة - نستحم - الشتاء - الخريف - شط البحر - نجمتين - موجتين - الرمال - المحار - راقصة - السماء - البحار - جارتين - شرفة - مطلعنا - واحدة - التيار - للمسافرين - حصى - المفرق - الزمان - حبيبتى - يأفل - يدركنا - يعبر السبيل - ناعم - جناحى نورس - رقيق - طريق - يضمنا - البحارة - مركب قديم - النسيم - الغيوم - الأحباب - الوطن - كلامنا - افتتحنا - المزمار - الأشعار - يجن ليل - ضياعهم - أود - النجوم - الرثاء - الضحكة - البريئة - خطوتى - أيام - الصقيع - سقطت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- مطلع الصبا - رصيف - الحياة - نخلعه - ننساه - لك السلام - دون ثمن - الربح - الخسارة - الطهارة - حبك الرقيق - مفترقان - أعطيك.... إلخ .

ومانود أن نشير إليه هو أن شاعرنا - من منطلق معايشته لدقائق وأبعاد تجربته معايشة كاملة - تمكن من الاهتداء إلى نوعية من المفردات والعبارات استطاعت أن تنهض بتجسيد عالم المفارقات والمتناقضات الذى يعيش في رحابه، مما يمكن القول أنه نجح في إضافة لون جديد من هذه المفارقات التى عرضنا لها هو المفارقة اللغوية، وإليك بعض الأمثلة : -

إذا كان فى مستهل قصيدته يتحدث عن الطبيعة ويستلهم أو يستكنه مظاهرها تخير لنا بعض المفردات الناعمة الرقيقة التى تتواءم وهذه المشاهدة الساحرة، فكان هناك (غصنى شجرة - الشمس - الربيع - الفجر الندى - خريف - شتاء - شط - موجتين - رمال - محار - سحابة - غيوم - نضئ - تيار زبد - جناحى نورس رقيق - السفن - البحارة - النسيم - الليل - ...إلخ.

على صعيد آخر انتقل بنا الشاعر إلي عالم لغوى آخر يحمل ظلالاً باهتة أو سحباً داكنة فأحدث بذلك المفارقة، نلمس ذلك فى مثل هذه المفردات (اليأس - الحسرة - الأسى الكئيب - قسوة - قسوتها - الملفوفة المشتبكة - نخلعه - ننكره - خال من الوسامة - التعتيم - الجهامة - القمامة - الوجيع - الضائعين المحيرين - البكاء - البؤساء - تجلدنى الشموس والصقيع - الظلام يحرقنى - مفترقان - انكسرت قوادم الأحلام.... إلخ مما يشى بعالم مغاير للذى عهدناه حينما كان يتحدث عن مفردات الطبيعة أو عن ماضيه ذى الربيع الخالد .

وقد لوحظ علي لغته استخدامه الكثير للجملة الفعلية، وتقاصر خطو الجملة الاسمية، مما يشعر بامتداد المأساة واستحضارها وتجددها، أو تأكيد عمقها فى النفوس .

وتراه يكثر من استخدام الأساليب الإنشائية - ولاسيما الاستفهام الذى يحمل دلالات التمنى أو التعجب والحيرة، وكذلك النداء، وقد يتآزران معاً فيسهمان في تجسيد عمق الفجيعة من جهة وتأكيد المفارقات من جهة أخرى .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يامن يدل خطوتى على طريق الدمعــة البريئة
يامن يدل خطوتى على طريق الضحكة البريئة

وتجهيل المنادى يوحى بتلهف الشاعر علي استدعاء أو استقدام أى مخلص من هذا المستنقع الموبوء الملئ بالتخليط والقمامة.

ويلاحظ علي لغته كذلك استخدامها أدوات أو حروف تشير إلى إيحاءات مختلفة، وتحمل دلالات متباينة تنم عن أحاسيس مختلفة، لاحظ معى (لو - لو أننا-كن -كنت - حين -لكننا - لكنى- سوف - ما- ماذا - لا - ثم ... إلخ).

أرأيت إلى أى مدى استطاع الشاعر أن يستخدم لغة هامسة أليفة تقترب أحياناً من لغة الحياة اليومية، لكنها بعيدة عن سرد الأشياء سرداً آلياً تقريرياً يفقد الشعر روحه، لغة احتفت بالأشياء الحميمة والتفاصيل اليومية - نعم، ولكن في غير تتابع فج أو إفساد لذوق الأمة كما هى الحال عليه لدى جل شعراء الحداثة اليوم، وكأنه - عبد الصبور - بهذا الاستخدام الواعى يلفت النظر إلى موهبته المقتدرة، وعمق ثقافته، والتعامل مع الجديد بحذر ينأى به عن تداخل المجازات، والسرد الآلى التقريرى، والتتابع الممجوج، وبهلوانية التشكيل اللغوى الخالي من المضمون، واللعب بدلالات الألفاظ إلي حد الغموض المدلهم الذى شكا منه حتى كبار نقاد عصرنا[١]، ويقترب به فقط من البساطة الأليفة المألوفة .

٧ - الصورة الشعرية :

الصورة الشعرية عبارة عن كيفية تناول الشاعر للمرئيات والوجدانيات فى محاولة منه لنقل تجربته إلى المتلقى على درجة كبيرة من التأثير فضلاً عن إثارة مشاعره وانفعالاته، أو نقل هذا المتلقى إلى حالة من الانفعال تشبه تلك التى مرت بالشاعر لحظة تجسيد قصيدته، فهدف الصورة الشعرية إذن هو تمكين المعنى والتأثير القوى فى المتلقى «فالصورة الأدبية هى التركيب القائم علي الإصابة

---

(١) للتفصيل: راجع شعر الحداثة فى مصر ص٢٩١ ومابعدها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في التنسيق الفنى الحى لوسائل التعبير التى ينتقيها وجود الشاعر - أعنى خواطره ومشاعره وعواطفه - المجرد من عالم المحسات؛ ليكشف عن حقيقة المشهد أو المعنى فى إطار قوى نام محس مؤثر علي نحو يوقظ المشاعر في الآخرين .. وهى تختلف من شاعر إلي آخر لأنها مزيج من الأفكار والمشاعر والعواطف حسب تكوينه المفرد لايشترك فيها أحد غيره كالشأن في بصمات الإنسان؛ فلا تلتقى بصمة لإنسان مع بصمة أخرى...»[١]، وهى - في هذا الضوء - تعد ركناً أصيلاً وقديماً من أركان العملية الشعرية إن لم تكن فى جوهرها، «فالشعر قائم عليها منذ أن وجد حتى اليوم»[٢] وإذا خلا الشعر من الإيحاء والتصوير فقد روحه وأصبح نظماً لاشعراً .

وعلى الرغم من كونها (الصورة) قديمة قدم الشعر نراها احتلت مكاناً بارزاً علي مر العصور، وقديماً قال الجاحظ «إنما الشعر صياغة، وضرب من النسج وجنس من التصوير»[٣].

والصورة تختلف من شاعر لآخر، ومن بيئة إلى أخرى، أو من عصر إلى آخر، ومن ثم فهى تخضع لمؤثرات قد تكون نفسية تتعلق بنفسية الشاعر وقوة تخيله ومدى قراءاته ووفرة ثقافته واطلاعاته، وقد تكون لغوية ترتبط بالقالب التركيبى الذى تنصب فيه الصورة، ومدى قدرته على الإيحاء الرامز أو دقته في نقل مكنونات الشاعر إلي المتلقى، وقد تكون اجتماعية أو (سيكلوجية) تتعلق ببيئة الشاعر أو واقعه ومايموج به من تيارات مختلفة، ومايكتنفه من ملابسات وأحوال عاشها الشاعر .

فى ضوء هذه المفاهيم يمكننا استخلاص رؤية متكاملة للمفهوم الجديد الذى تنحنى عليه الصورة، والذى يتركز فى أنها عبارة عن تشكيل لغـــوى

---

(١) البناء الفنى للصورة الأدبية فى الشعر: د. على علي صبح صـ١١، ١٣ المكتبة الأزهرية للتراث - القاهرة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م الطبعة الثانية.

(٢) فن الشعر د/ إحسان عباس صـ٢٣٠ - الطبعة الثالثة - بيروت ١٩٥٩م.

(٣) الحيوان - الجاحظ - تحقق عبد السلام هارون ١١١/٣ - القاهرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يكونه خيال الفنان من معطيات متعددة يقف العالم المحسوس فى مقدمتها، فأغلب الصور مستمدة من الحواس إلى جانب مالايمكن إغفاله من الصور النفسية والعقلية.(١)

أما فيما يخص التصوير فى قصيدة (أحلام الفارس القديم) فبداية نشير إلى أن الشاعر أخضعه لسائر المقومات أو المؤثرات النفسية واللغوية والاجتماعية، كما أخضعه لمنطق التداعيات المحكومة التى تشكل سراً كبيراً من أسرار صنعنته الفنية(٢)، وقد توظف ذلك كله وأسهم فى تجسيد المفارقات الكبرى التى تنهض عليها القصيدة، المفارقة بين الفارس الهمام الصلد قديماً والفارس المتكسر قوادم أحلامه آنياً، المفارقةبين أمسه وربيعه الخالد، ويومه المفعم بالحسرات، المفارقة بين التزام الفنان بالكلمة والرسالة والهموم المصيرية وإلزامه بالقضايا والشعارات المجوفة، إلخ مايتنوع على هذا الأساس .

وطبيعى أن يأتى تصويره غالباً من النمط المتقابل الذى يتكئ عليه الشاعر في تعبيره للمقارنة بين حالين، ولعل سبب هذا الاتكاء يعود إلى رغبته في توضيح مراده أو قصده، والعمل على قوة التأثير في النفوس، ففى حين يستهل قصيدته برسم بعض الصور الزاهية الملونة لأنه ينهل من ينابيع الطبيعة الساحرة الآسرة وجدنا الجزء الثانى في القصيدة تشيع صورة التعتيم والقتامة، وكأنه يقابل بين عالم الفارس القديم وعالمه الآنى المتخم بالضعفاء والمساكين،

---

(١) للتفصيل: انظر الصورة فى الشعر العربى حتى آخر القرن الثانى الهجرى د/ على البطل صـ٣٠ ومابعدها - بيروت ١٩٨٠م.

وانظر كتاب البناء الفنى للصورة الأدبية فى الشعر: د. على على صبح الطبعة الثانية ١٤١٦/ ١٩٩٦ المكتبة الأزهرية للتراث - القاهرة .

(٢) سر الصنعة الفنية لدى شاعرنا يكمن في عدة محاور هى: عدم علو الصوت أو ارتفاع النبرة، والبعد عن الخطابة، والميل إلى التلقائية المدربة، والتداعيات المحكومة، للتفصيل راجع: علم نفس الأدب د/ مصرى عبد الحميد حنورة - المجلد الأول صـ١٣١ ومابعدها - دار غريب - القاهرة ١٩٩٨م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والمفعم بالتخليط والقمامة، والذى أدى به فى نهاية المطاف إلى أن يكون مجرد مجرب قعيد موؤود الطموحات، فاقداً القدرة على الفعل والمشاركة، متلهفاً مترقباً انتظار المخلص المجهول الذى قد يحقق المعادلة الصعبة ويوازن أو يؤاخى بين المتناقضات .

نراه مثلاً في الجزء الأول يرسم لك صورة الغصنين النديين اللذين غمرهما الطل وروتهما الشمس حتى اخضوضرا وازدهيا وتناميا، وهب الربيع فمنحهما الثياب الملونة، وحينما جاء الخريف نزع عنهما هذه الثياب، ولكنهما لم يلبثا أن استدفأ بالشتاء العطوف الحانى، انظر إلى هذه الصورة الزاهية المصبوغة بالجمال والمفعمة بما يسمى بـ(أنسنة الطبيعة) يقول: -

لو أننا كنا كغصنى شجرة

الشمس أرضعت عروقنا معا

والفجر روانا ندى معا

ثم اصطبغنا خضرة مزدهرة

حين استطلنا فاعتنقنا أذرعا

وفى الربيع نكتسى ثيابنا الملونه

وفي الخريف، نخلع الثياب، نعرى بدنا

ونستحم فى الشتاء، يدفئنا حنونا

وهذه هى صورة النجمتين المتجاورتين (توأمين) تطلان من شرفة واحدة، وتبشان الإشراق والضياء للمسافرين فى بحار الحب والغرام، والساهرين على رعية عهود العشق ومواثيقه، هاتان النجمتان تستعصيان على التغور والأفول، وتتأبيان على الأفول إلا مع رحيل الزمن، حتى ولو أفلتا استحالتا درتين مضيئتين بين حصى الجنة، يخطف بريقهما الأبصار، ليست أية أبصار، إنما أبصار ملك مهيب يطمع فى التقاطهما ليضعهما فوق مفرقه الطهور، أو يرصع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بهما تاجه المضفور بأكاليل الثناء والغار، أى جمال هذا وأى صفاء وشفافية وروعة فن؟! انظر إليه يقول مجسداً بعض صوره الزاهية :

لو أننا كنا بخيمتين جارتين
من شرفة واحدة مطلعنا
فى غيمة واحدة مضجعنا
نضئ للعشاق وحدهم وللمسافرين
نحو ديار العشق والمحبه
وللحزانى الساهرين الحافظين موثق الأحبه
وحين يأفل الزمان ياحبيبتى
يدركنا الأفول
وينطفئ غرامنا الطويل بانطفائنا
يبعثنا الإله فى مسارب الجنان درتين
بين حصى كثير
وقد يرانا ملك إذ يعبر السبيل
فينحنى، حين نشد عينه إلى صفائنا
يلقطنا، يمسحنا فى ريشه، يعجبه بريقنا
يرشقنا فى المفرق الطهور

ومن بين الصور البديعة الزاهية التى تنم عن رهافة حس الشاعر نلتقط هذه الصورة التي تصور النورس، هذا الطائر البحرى الوديع الذى تمنى الشاعر لنفسه ولحبيبته أن يكونا كجناحيه الرقيقين، وهنا ندخل إلى ماألمحنا إليه سلفاً من التداعيات المحكومة بالمنطق، بمعنى أن النورس هو أحد أنواع الطيور البحرية الرقيقة الوديعة والتى دأبت علي الهجرة بحثاً عن الدفء ونعومة الحياة، وطالما كنا فى رحاب هذا الطائر المسافر فى أعماق البحار والمحيطات،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فلابد أن يصحب السفن والبحارة والمسافرين، والأشرعة وماإلى ذلك، وحتى يستقطب ألفتهم جميعاً تراه يتفنن فى استقطاب مايجعله قريباً من نفوسهم؛ من ثم تراه يؤنسهم ويسامرهم وقد يمكث بعيداً ثم يأتى بعد أن يكون قد استطلع الأخبار المناخية والجغرافية ليبشرهم بسلامة الوصول إلى المرفأ الأمين، وطالما كان هو مهاجراً، وطالما كانوا أيضاً مسافرين فلا مانع من أن يشعل فيهم جذوة الحنين إلى الأهل والوطن والأرض والصحب وماإلى ذلك. وطالما كنا - لانزال - (فى عالم البحار) فليس هناك مايمنع من التقاط بعض الصور الموحية (بعطر الأحباب) والأجواء، والبعيدة تماماً عن الثلوث البيئى، بل لوثة النفوس، ومن ثم جعل الشاعر منقاره يلتقط النسيم، ويرتوى من عبق الغيوم أو عروقها، ليعود إلى المغتربين فيرشش عليهم الأنداء والطيوب التى تضوع لهم الزمان والمكان .

وإذا كنا مع الغربة والترحال فلا هناك مايمنع من أن تنبعث الترنيمات والأشعار والألحان لتلوث نسق الحياة الممل، وتحفز النفوس على التعانق مع الحياة من جديد، هذا هو منطق التداعيات المحكومة كما أتصوره وكما عكسه سياق هذا المقطع الزاهى، يقول صلاح عبد الصبور :

لو أننا كنا جناحى نورس رقيق
وناعم، لايبرح المضيق
محلق على ذؤابات السفن
يبشر الملاح بالوصول
ويوقظ الحنين للأحباب والوطن
منقاره يقتات بالنسيم
ويرتوى من عرق الغيوم
وحينما يجن ليل البحر يطوينا معا... معا
ثم ينام فوق قلع مركب قديم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يؤآنس البحارة الذين أرهقوا بغربة الديار
ويؤنسون خوفه وحيرته
بالشدو والأشعار
والنفخ فى المزمار

مثل هذه الصور الملونة الزاهية تعكس عواطف مشرقة تنم - فيما لو تحققت للشاعر - عن البهجة الغامرة، لكننا حينما نقرنها ببعض صور الجزء الثانى أو نقابل هذه بتلك تتبدى لنا المفارقة التصويرية على أروع مايكون، لاحظ تصويره لنفسه بالمجرب القعيد، أو بالكهل المقعد على الهامش، على رصيف الواقع المفعم بالضجيج والجزافية والمعايير المقلوبة رأساً على عقب، حتى ذابت الوسامة، وتلاشت قيم الحق والخير والجمال، وآنئذ غدا الفارس الهمام عاجزاً عن دفع الأقدام، أو اتقاء هجير الحياة، أو دفع غوائل البرد والصقيع... إلخ مما يشى بسوداوية المزاج والصور، وسيطرة العواطف الغائمة التى تكشف عن نفس ملتاعة أضناها التعتيم ومزقتها الجهامة، يقول:

لكننى يافتنتى مجرب قعيد
على رصيف عالم يموج بالتخليط والقمامه
كون خلا من الوسامه
أكسبنى التعتيم والجهامه
حين سقطت فوقه فى مطلع الصبا
قد كنت فيما فات من أيام
يافتنتى محارباً صلباً، وفارساً همام
من قبل أن تدوس فى فؤادى الأقدام
من قبل أن تجلدنى الشموس والصقيع
لكى تذل كبريائى الرفيع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذه الانسيابية التصويرية هى محكومة - كما أشرت - بمنطق التداعيات المحكومة بالمنطق، والصور - فى أغلبها - من النمط المتقابل الذى يجسد المفارقة ويعمل على تقديرها فى النفوس والأذهان، وهى أيضاً واقعية فى معظمها؛ بمعنى أنها لاتميل إلى الدخول إلى عالم المجازات والاستعارات والتشبيهات وماإلى ذلك، إنما تتكئ على المفردة المصورة، فاللفظ هو وعاء الصورة، لاالتشبيه ولاالأداة، ثم يقوم خياله الخلاق بتنسيقها وترتيبها وفق منطق التداعيات المحكومة .

٨ - الموسيقى :

لعل النغم الموسيقى هو أهم أو أظهر مافي هذه القصيدة والذى بسببه راح الدكتور الشاعر السفير (غازى القصيبى) يطلق عليها (القصيدة السيمفونية) التى تتراوح كلماتها ومقاطعها وتتناغم فى تآلف غريب تعشقه الأذن وترتاح إليه النفوس، ويمضى فيقول «وأشهد أننى لم أقرأ هذه القصيدة إلا وتصورت حروفها أنغاماً مجنحة فى الفضاء تدور حولي وتنهمر شلالاً جميلاً من اللحون»[١]، بل نراه يخرجها من زمرة الشعر الحديث ليدخلها في نطاقه القديم، علي اعتبار أن مقياس الاستمتاع بالقديم هو الإنشاد بصوت عال، أو التغنى، في حين يحتاج الشعر الحديث إلى قراءة صامتة متأنية، فالقصيدة لاتفضى بكل أسرار جمالها ولاتمنح المتعة إلا لمن يرفع بها صوته، بل يزعم الدكتور غازى أن أى إنسان مر بهذه القصيدة دون أن يرفع بها صوته فى غناء أو مايشبه الغناء فإنه لم يمر بها على وجه الإطلاق[٢].

ويبدو أن الذى دفع الدكتور إلى القول بذلك هو ماتتميز به هذه القصيدة من ثراء مناخها الموسيقى المتمثل تارة فى تنوع أساليبها وتراوحها بين الخبر

---

(١) عن: الشعر وهموم الإنسان المعاصر صـ١٣٤ .

(٢) ذاته والصفحة نفسها .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والإنشاء، وكذلك ماتعج به من كثرة الحروف والأدوات، ومايصحب هذا كله من تتنوع فى الأداء والإلقاء وإيقاعات النبر والتنغيم المعكوسة فى تشديد وتضعيف بعض الأصوات، أو مد البعض وتنوين البعض الآخر مما ينعكس إيجاباً علي موسيقى القصيدة .

وأيضاً يجدر أن نشير إلى تكرار حرف النون علي نحو ملفت للنظر مما كان يمكن أن يشكل ظاهرة موسيقية، ولاسيما وقد وجدناه في جميع حالات ضمائر المتكلم والخطاب من إفراد وتثنية وجمع وتذكير وتأنيث وماأشبه، حتى إن فقد من كلمة ما وجدنا الاستعاضة عنه بالتنوين كبديل نغمى .

هذا والقصيدة التى بين أيدينا تنتسب إلي بحر الرجز، هذا البحر ﴿الزئبقى الرجراج، كثير التموج والاضطراب، والذى رشحته موجاته الراقصة المتغيرة لأن يكون الأصل فى الأوزان العربية على آرجح الأقوال، وأقربها فى أنغامه إلى إيقاع الحياة والحركة، ثم هو - بماله من طواعية وسلاسة - يعد من أوثق البحور ارتباطاً بذبذبات الانفعال وتغيرات الإحساس، وهومن أوسع البحور انتشاراً فى شعر التفعيلة، ففيه لكل غرض ملاءمة وتناسب، ثم هو كذلك بحر متغير متلون، فيه المد والجزر يجزأ ويشطر وينهك، وأخيراً فهو بحر صاف يرتكز على تفعيلة واحدة تتكرر هى (مستفعلن أو متفعلن)، وقد تغدو كذلك (مستعلن) أو (متعلن) وكلها أشكال للتفعيلة نفسها﴾[1].

إذن هو بحر ملائم لمثل مضامين القصيدة، وصدق الشاعر فى تجربته هو الذى هداه إلي النظم على تفاعيل هذا البحر الملائمة لشتئ الأحاسيس والانفعالات .

أما عن القافية فقد كانت منوعة؛ بحيث ترددت عدة قواف على امتداد القصيدة، يتنازع بعضها السيطرة على مواقع النهايات، فى حين يظل البعض الآخر مكتفياً بالحضور والتردد هنا وهناك، من ثم فالقافية ليست مهيمنة ولم

---

(١) الشعر وهموم الإنسان المعاصر صـ١٣٥ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تأخذ الشكل الأحادى الذى درجت عليه القصيدة العمودية، ﴿وإنما تعتمد على عدة قواف تتشابك علاقتها فيما بينها، فقد تتتابع وتتوالي حيناً، وتتداخل أحياناً، كل هذا يحدث داخل القصيدة الواحدة﴾(١)، مما يكشف عن أنه لامساحة لوجود القافية في الشعر الحر أو شعر التفعيلة من جهة ، وعن إفادة الشاعر ﴿من الإمكانات النغمية للقافية بعد تحرره من قيدها الحديدى، فجعل لكل مقطع عدة قواف تمنحه اللحن والأنغام، لكنه لاتكسبه الملل والرتابة﴾(٢).

هذا ولاينبغى أن نغفل أن مصادر الموسيقى فى قصيدة التفعيلة تنبع - فوق ماذكرنا - من إيقاعات الوجدان أو ذبذبات الانفعالات حدة أو رقة أو عمقاً وقوة، وأيضاً اللضغط على بعض الأصوات ورنين بعض الأحرف، وتنبع كذلك من السكتات والفواصل بل من الشحنات التنفسية والإشارات التاريخية أو الاجتماعية أو السياسية، إضافة إلى صدق التعبير وروعة التصوير وسحر الفن..... وماإلى ذلك من التشكيلات الجمالية التى تنهض عليها القصيدة الحرة.

وبعـــد،،

فنرجوا أن نكون قد وفقنا فى معالجة هذه القصيدة التى هى بلا شك تحوى ملامح وشيات ديوان كامل وسمت باسمه، كما نرجو أن تكون هذه الدراسة بمثابة خطوة على طريق البحث العلمى الجاد تستقطب خطوات بلا نهاية.

د/ إسماعيل العبد المنشاوى

مدرس الأدب والنقد بالكلية

---

(١) مستويات البناء الشعرى عند محمد إبراهيم أبو سنة - دراسة فى بلاغة النص - شكرى الطوانسى صـ١٠٢ - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م .

(٢) الشعر وهموم الإنسان المعاصر صـ١٣٥ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أهم المصادر والمراجع

****

١ - **أبحاث ومقالات في الأدب الأندلسى** - د/ جميل عبد الغنى محمد علي - الطبعة الأولي ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م .

٢ - **أثر التراث فى الشعر العراقى الحديث** - على حداد - الطبعة الأولي ١٩٨٦م - بغداد .

٣ - **أصوات النص الشعرى**- د/ يوسف حسن نوفل - الطبعة الأولي - الشركة المصرية العالمية للنشر (لونجمان) القاهرة .

٤ - **البناء الفنى للصورة الأدبية في الشعر**: د. علي على صبح - الطبعة الثانية ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م - المكتبة الأزهرية للتراث - القاهرة .

٥ - **الجحيم الأرضى** - قراءة في شعر صلاح عبد الصبور - محمد بدوى - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٦م .

٦ - **حتى نقهر الموت**- صلاح عبد الصبور - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٥م .

٧ - **حياتى فى الشعر** -صلاح عبد الصبور - دار (اقرأ) بيروت ١٩٨١م.

٨ - **الحيوان** - الجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون - الجزء الثالث - الخانجى - القاهرة .

٩ - **ديوان (أحلام الفارس القديم)**- صلاح عبد الصبور - ضمن الأعمال الشعرية الكاملة - طبعة دار العودة- بيروت ١٩٨٦م.

١٠- **ديوان (البكاء بين يدى زرقاء اليمامة)** أمل دنقل - ضمن الأعمال الشعرية الكاملة - الطبعة الثانية ١٩٦٥م - دار العودة - ودار مدبولى القاهرة .

١١- **ديوان (سيرة اليد وأربعون نافذة على صباح في التيه)** وليد منير - سلسلة كتابات جديدة) - الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٢- **ديوان (عليك تتكئ الحياة)** ممدوح عدوان- الطبعة الأولى ١٩٩٩م- الهيئة العامة لقصور الثقافة - القاهرة - سلسلة (آفاق الكتابة) .

١٣- **سفر أمل دنقل** - تحرير عبلة الرويني- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م .

١٤- **شعر الحداثة في مصر**- الابتداءات - الانحرافات - الأزمة - د/ كمال نشأت - الهيئة المصرية العامة للكتاب ٩٨/١٩٩٩م .

١٥- **الشعر العربي المعاصر** - قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية- د/ عزالدين إسماعيل - الطبعة الثالثة- دار الفكر العربي- القاهرة.

١٦- **الشعر وهموم الإنسان المعاصر** د/ إخلاص فخرى عمارة - الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٢م- مكتبة الآداب - القاهرة .

١٧- **الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري**- د/ على البطل - بيروت ١٩٨٠م .

١٨- **علم نفس الأدب** د/ مصرى عبد الحميد حنورة - المجلد الأول - دار غريب - القاهرة .

١٩- **فن الشعر**- د/ إحسان عباس - الطبعة الثالثة- بيروت ١٩٥٩م .

٢٠- **قضايا الشعر الحديث**- جهاد فاضل - الطبعة الأولي ١٤٠٤هـ- ١٩٨٤م- دار الشروق القاهرة .

٢١- **(مأساة الحلاج)**- صلاح عبد الصبور (مسرحية) - ضمن الأعمال الشعرية الكاملة - دار العودة ١٩٨٦م .

٢٢- **مستويات البناء الشعرى عند محمد إبراهيم أبو سنة**- دراسة في بلاغة النص- شكرى الطوانسى- الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م .

ثانياً: الدوريات

(أ) إبداع (مجلة) عدد إبريل ١٩٨٥م .

(ب) إضاءة ٧٧ (مجلة) (يوليو ١٩٧٧- نوفمبر ١٩٨٨م) .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفهـــرس

الموضـــوع	الصفحة
مقدمة الواجب	
أ.د. عبد الحليم عبد الفتاح عمر	٥
دلالة النهى على الفساد والبطلان	
أ.د. محمد عبد العاطى محمد على	١١
المحاسن الإجمالية للأحكام الشرعية	
د. محمد أبو الفتح البيانونى	٣٧
محاسن خصائص الإسلام	
د. محمد أبو الفتح البيانونى	٥٣
حكم التصوير الشمسى (الفوتوغرافى)	
د. عبد الرؤوف محمد أحمد الكمالى	٩٣
فيض المنان فى بيان حكم بيع النجش والعربان	
أ.د. محمد عبد الفتاح البنهاوى	١٤٧
الجناية على النفس وما دونها	
د. محمود محمد مفتاح	١٧٥
من أحكام الهبة	
د. شكرى صالح إبراهيم الصعيدى	٣١١
أثر القبض فى عقود التوثيقات	
د. جمال عبد الوهاب عبد الغفار الهلفى	٣٧٧
أحكام اليمين الغموس	
د. السيد رضوان محمد جمعه	٥٢٣
المسئولية الفردية والجماعية فى المجتمع الإسلامي كما يصورها القرآن	
أ.د. محمد شبل مصطفى عطية	٥٧١
التفسير الموضوعى وطرق البحث فيه	
د. وليد مساعد الطبطبائى	٦٤١
لمحات من ألوان التفسير وإتجاهاته قديما وحديثا	
د. وليد مساعد الطبطبائى	٦٨٩

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الموضـــــوع	الصفحة
أصول التربية والتعليم كما رسمها القرآن الكريم	
د. أحمد بن أحمد بن شرشال	٧٦١
وضوء النبى صلى الله عليه وسلم	
د. محمد الطيب خضرى	٨٠٩
اليهود عقيدة وفكرا	
د. عبد الحميد عبد اللاه عبد الرحمن	٨٥٩
مصادر نشأة علم الكلام	
د. أحمد رفاعى عبد اللاه محمد الوقدى	٩١٣
اللغة والكلام	
د. محمد سعد محمد أبو عبا	٩٦٧
قبس من الإعجاز النحوى للقرآن الكريم	
أ.د. عبد المعطى جاب الله سالم	١٠١٥
التخالف والتوافق بين الجمع وضميره العائد عليه فى القرآن الكريم	
د. محمد السعيد عبد الله عامر	١٠٦٩
أبنية المبالغة القياسية بين الإعمال والإهمال	
د. عبد الفتاح عبد القادر وهدان	١١٣٣
تخفيف الهمزة بين النحويين والقراء	
د. المتولى على المتولى الأشرم	١٢١٣
البلاغة القرآنية فى آيات الرجاء	
د. طه محمد طه المتولى	١٣٠٩
السجع بين القبول والرد	
د. رجب محمد سالم رفاعى	١٣٧١
إبراهيم عمر صعابى فى حبيبتى والبحر	
د. محمدين محمدين يوسف	١٤٢٩
كوميديا البخيلة لأمير الشعراء أحمد شوقى	
د. زكريا حامد عبد الفتاح غازى	١٤٧١
أحلام الفارس القديم للشاعر صلاح عبد الصبور	
د. إسماعيل العبد المنشاوى	١٥٦٧

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner